التعليم والســـياسة (*)

دكتور / محمد صلاح الدين (**)

يكره بعض الناس السياسة ويلعنون السياسة ، ويلقون عليها التبعـة فيما يفسد الحياة العامة من أكدار وأوزار · فالسياسة فى اعتبارهم خبث ودهاء ، ونفاق ورياء ، وحقد وجفاء وطغيان واعتداء ، وحرب هوجاء حزبية صارحة حمقاء ، ونتائجها بالطبع شر فى شر وبلاء فى بلاء ·

وهؤلاء فى نظرتهم هذه الى السياسة معذورون · فهكذا أراد الساسة أن تكون السياسة فى أكثر أقطار الأرض وأغلب أدوار التاريخ ·

ولكنا لو أنصفنا لخالفناهم ونظرنا الى السياسة بغير العين التى نظروا بها ، فبرأناها مما يصفون · فالسياسة فى حقيقة الأمر غير مايظنون ، ولاذنب لها اذا ضل الساسة وتنكبوا سواء السبيل ·

السياسة تصريف المسائل العامة ورعاية المصالح العامة ، والأصـل أن نصرفها وأن نرعاها بما يرضى الله والضمير · ولو فعلنا ذلك لكانـت السياسة فى مخبرها وفى مظهرها أفضل المهن وأشرفها وأعظمها شأنا وأكثرها نفعا وأبعدها أثرا فى سعادة الناس ·

والسياسة بهذا التعريف تدخل فى كل شأن من شئون الحياة وتلعـب فيه دورها الخطير · ومن هنا تنجلى لكم العلاقة الوثيقة بينها وبين التعليم · بل لعل علاقتها به أقرب وأوثق من علاقتها بأى شأن سواه ·

فالتعليم غذاء العقول والنفوس والأرواح ، ضرورى كغذاء الأبدان، لازم كالهواء لحياة الانسان ، حيوى فى تأكيد الفرق بينه وبين الحيوان · وقد بلغ من أهميته أن أوصانا النبى الكريم عليه الصلاة والسلام بأن نطلبه من

(*) كلمة ألقيت فى مؤتمر جمعية المعلمين عن (سياسة التعليم فى مصر)١٩٤٥·

(**) كان وزير خارجية مصر فى حكومة حزب الوفد من سنة ١٩٥٠ ـ ١٩٥٢ ·

(دراسات تربوية)

المهد الى اللحد ، وأن نطلبه ولو فى الصين - فلا عجب اذن أن تعنى السياسة أكبر العناية بشئون التعليم وأن تعتمد عليه أعظم اعتماد فيما ترمى اليه من رعاية مصالح الناس وتحسين مصائر الناس ٠

والتعليم من جانبه يستطيع اذا فهم رسالته على وجهها وأداها حق أدائها أن يخطو أوسع الخطوات ويقدم أجل الخدمات فى هذا السبيل ٠

على أن للسياسة معنى أضيق تميل اليه فى البلاد التى شاء لها القدر القاسى أن يتحكم غيرها فى أقدارها ومصائرها ، وأبت همة أبنائها الا أن ينهضوا لاسترداد الحق المهضوم ٠ ففى هذه البلاد تمتزج معانى السياسة وتختلط مراميها بالمبادىء الوطنية والمطالب القومية والجهاد فى سبيل الحرية والكرامة والاستقلال ٠ والى هذه الأهداف النبيلة ينبغى أيضا أن تتجه مرامى التعليم ٠

ولايتسع المقام أيها السادة للاسهاب فى علاقة التعليم بالسياسة وضرب الأمثلة عليها وتحريهاعند غيرنا من الأمم لنقارنها بما عندنا ٠ فأكتفى بأن أشير اليها فى تاريخ مصر الحديث اشارة عابرة فيها مصداق ما أقول وفيها ذكرى وعبرة ونفع للمؤمنين ٠

فى أيام المماليك وأيام الحملة الفرنسية قامت فى مصر نهضة وعى قومى وشعور وطنى حمل لواءها العلماء وفى طليعتهم نقيب الأشراف السيد عمر مكرم الذى استحق أن يلقبه بعض المؤرخين برئيس الرؤساء وزعيم الزعماء ٠ وساهمت تلك النهضة الوطنية فى تنصيب المغفور له محمد على باشا مؤسس الأسرة المالكة الكريمة ومنشىء مصر الحديثة واليا على مصر فجلس على عرشها باسم الشعب المصرى وبتأييد ناطق من المصريين ٠ وكان هذا الوالى الكريم من عباقرة البنائين ، فلم يفته ما للتعليم من الأهمية الكبرى فى تأسيس الدولة المصرية وتوطيد أركانها فأولاه أشد العناية وأبلغ الاهتمام ٠

وكان التعليم القائم تعليما دينيا يحمل أكبر عبئه الأزهر الشريف ، فلم يهدمه الوالى ، ولكنه أقام الى جانبه صرح التعليم المدنى الحديث ، فأنشأ المدارس الابتدائية والتجهيزية والحربية والبحرية والخصوصية

والفنيـة والصناعيـة ، ولم ينس مدارس البنـات وأوفد البعوث العلميـة وعنى بترجمة الكتب الأجنبية ونظم هيئة الاشراف على شئون التعليم فأنشأ شورى المدارس فديوان المدارس ، ووضع اللوائح بنظم الدراسة وبرامجها وخطط الادارة وتفصيلاتها وبالجملة فقد خلق من العدم نهضة تعليمية حديثة واضحة المعالم مستوفية الكيان

ويجب أن نعترف بأن محمد على باشا مزج التعليم بالجندية الى حد كبير ، وكان يسخره لأغراضه الحربية واعتباراته الحكومية ويرمى به الى تعزيز الجيش بالضباط والأطباء والمهندسين والأسلحة والعتاد ، وتعزيز هيئة الحكومة بالموظفين المصريين والتمكن من الاستغناء عن الموظفين الأجانب الذين اضطر الى استخدامهم · ولم يكن يعنى فى نهضته التعليمية الا قليلا بتهذيب عامة الشعب ورفع مستواهم الثقافى ، ولكنى لا أحسب ذلك عيبا كبيرا ، فقد كان ينشىء من العدم ويماشى روح العصر ، ووفق مع ذلك الى تحقيق الكثير من الأغراض القومية التى لخصها الأستاذ أحمد عزت عبد الكريم فى كتابه القيم عن التعليم فى عصر محمد على باشا على الوجه الآتى :

١ ـ توجيه البلاد وجهة التعليم الحديث ·
(٢) نشر الثقافة الغربية الى جانب الثقافة العربية ·
٣ ـ بث الروح القومية ·
٤ ـ توطيد زعامة مصر فى الشرق العربى ·
٥ ـ النهضة باللغة العربية ·
٦ ـ فتح الباب لتدعيم أركان النهضة التعليمية فيما يلى من العصور·

غير أن خلفاء محمد على لم يعنوا عنايته بالتعليم فخبت جـــذوته ، كما خبت جذوة غيره من النهضات حتى كان عهد اسماعيل العظيم ·

واسماعيل بعد جده الكبير منشىء مصر الحديثة وصاحب الأيادى البيضاء فى يقظتها والعامل الدائب على أن تصبح مصر جزءا من أوروبا فى رقيها وتقدمها ، فعادت نهضة التعليم على يديه سيرتها فى عهد جده ، وأدخل عليها الكثير من التعديلات والتحسينات وبخاصة فى الروح والنظام والأهداف ففتحت المدارس الأهلية ونشر التعليم فى الأقاليم وأنشئت مدرسة دار العلوم

لتخريج المعلمين الصالحين ورتبت المحاضرات والدروس العامة وانتشرت الجرائد السيارة وتنوعت موضوعات الكتابة فيها وعنى على وجه خاص بالموضوعات القومية والوطنية والتهذيبية والاصلاحية · واهتم اسماعيل بالفنون الجميلة على اختلاف ألوانها فكان أول راع لها فى التاريخ المصرى الحديث · ومن هذا كله ترون أن اسماعيل خرج بالتعليم المدنى من دائرته الضيقة ، دائرة اعدادنا الضباط والموظفين الى دائرة أوسع وأفق أسمى ، فأصبح من مرامى التعليم تهذيب عامة الشعب ورفع مستوى الثقافة عند الأمة كلها وتكوين رأى وطنى عام يفكر فى مصائر الوطن ويحرص على مصالحه العليا ·

ووافق ذلك نهضة موازية فى أفق التعليم الأزهرى على يد الزعيم الروحى الكبير السيد جمال الدين الأفغانى ، فكانت هاتان النهضتان العلميتان الروحيتان أساس كل نهضة قومية وحركة وطنية قامت بعد ذلك فى مصر ، واليهما تنتسب روح الثورة العرابية التى أوقدتها العناصر المصرية لانصاف المصريين ، ولم يقم بها رجال الجيش وحدهم ، بل حمل عبئها معهم كثير من أهل الرأى وقادة الفكر وحملة الأقلام وفى طليعتهم محمد عبده وعبد الله نديم وسعد زغلول ·

ثم منيت مصر بالاحتلال المشئوم وعنى رجاله عناية فائقة بوضع اليد على شئون التعليم وتوجيهه فى خدمة الاحتلال · وافتن مستشار المعارف المشهور المستر دنلوب فى وضع الخطط المؤدية الى تلك الغاية ، فأصبح الغرض من المدارس اعداد موظفين يفكرون بروح الاحتلال ويخدمون أغراض الاحتلال ، وضيقت دائرة التعليم وحوربت المجانية فيه بل ألغيت الغاء تاما ، وهبط نوعه ومستواه فحول الكثير من المدارس الابتدائية الى كتاتيب وصرفت العناية الى هذه الكتاتيب على حساب التعليم العالى وفرضت اللغة الانجليزية فرضا لاعلى حساب اللغة الفرنسية وحدها ولكن على حساب اللغة العربية أيضا · وترتب على فرضها فرض المعلمين الانجليز على دور العلم وان جهلوا فى بعض الأحيان مايعلمون ·

وغنى عن البيان أن الشعب المصرى لم يطق صبرا فى يوم من الأيام على الاحتلال بل كافحه منذ اليوم الأول وحاربه دون هوادة ، وتوالت آيات

هذا الكفاح وتعددت مظاهره وكلها تمت بسبب مباشر أو غير مباشر الى التعليـم ٠

فهذا هو الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل وصاحبه النبيل الأمين محمد فريد وأنصارهما من صفوة المثقفين ونخبة المفكرين يرفعون رايـــة الوطنية ويقودون الحركة الاستقلالية بما أوتوا من تفوق علمى وتحرر عقلى ملأ نفوسهم بحب الوطن وأفعما رؤوسهم بحق الوطن وحبا اليهم فى سبيـل الوطن احتمال أفدح الأرزاء وبذل أكرم الفداء ٠

وهذا هو سعد زغلول ابن الثورة العرابية أولا وأب الثورة الاستقلاليـــة أخيرا يشاء الله أحكم الحاكمين أن يتولى نظارة المعارف العمومية والاحتلال فى أشد جبروته ، فما يبالى بجبروت الاحتلال بوضع الحد لطغيان المستر دنلوب ويفهمه فى صراحة وجلاء أن الأمر فى نظارة المعارف أمر الناظر المصرى لا أمر المستشار الانجليزى ٠ ثم لايزال بشئون التعليم يظر فيها بعين مصرية ويداويها بروح وطنية وينفى عنها أغراض الاحتلال حتى يستقيم لها أساس وطنى سليم ٠ فهو يعيد المجانية وبخاصة لذوى الاستعداد مـــن المتفوقين الذين لاتسمح لهم الحال بمواصلة التعليم ، وهو يعنى بالدراسات العالية والبعوث العلمية ، وهو يحل اللغة العربية محل اللغة الانجليزيـة فينصف لغة البلاد ويرفع كرامة البلاد وييسر العلم للطلاب ويفتح للمعلم المصرى موصد الأبواب ٠٠

وهذا هو قاسم أمين يعرف بسليم فطرته وثاقب فكرته وواسع ثقافته مكانة المرأة فى المجتمع ، فيدعو دعوته الى تحريرها وتعليمها لتنهض مع الرجل بواجبها فى تحرير الوطن ورفع شأنه بين الأوطان ، بل هذه هى مصر الراقية كلها تضيق ذرعا بما يلقاه أبناؤه من تضييق فى التعليم العالى فتنادى عليه مفكريها ونخبة مصلحيها ، وينادون غيرهم لانشاء جامعة أهلية ينمو فى كنفها التفكير الحر والشعور الوطنى الصميم وتتقدم الباذلين لانشاء هذه الجامعة الأميرة الكريمة فاطمة بنت اسماعيل فتجود بالمحبوس والحلى والنقود ويرأس المشروع الأمير الجليل فؤاد بن اسماعيل فيبذل أكرم الجهود حتى تستوى الجامعة الأهلية مثابة لحرية الفكر ونور العلم ونواة لأول جامعة حكومية تتوج الثقافة المصرية وترفع رأسها فى الآفاق ٠

ولقد كان حتما مقضيا أن تفضى هذه الحركات الوطنية الرائعة والنهضات العلمية المتتابعة الى الثورة القومية الجامعة التى عمت مصر فى سنة ١٩١٩ ، وقاد زمامها ناظر المعارف القديم سعد زغلول ، وكان طلاب العلم جنودها المخلصين ٠

ثم تؤتى هذه الثورة أكلها مزدوجا طيبا فتحظى مصر بالدستور يعترف لها بالاستقلال وتخلص شئون التعليم فى ظلهما للحكومة المصرية تحت اشراف البرلمان ٠

ايهـا السـادة :

هذا عرض مختصر لتطورات التعليم فى مصر من عهد محمد على الى اليوم ٠ ومنه ترون أية علاقة وثيقة تربط التعليم بالسياسة وتربط السياسة بالتعليم ، حتى لتكاد تكون علاقة اندماج وامتزاج ٠ واذا قلنا فى مصر السياسة فكأنما نقول الوطنية ٠ فالوطنية المصرية كانت توقد شعلة التعليم وكان التعليم يوقد شعلة الوطنية ، وكان الصفوة المثقفون هم قواد الحركات القومية ، وكان طلاب العلم هم طلاب الحرية والاستقلال ٠

الآن وقد خلصت شئون التعليم للحكومة المصرية كما أسلفنا فانكم تدركون ولاريب أية مسئولية خطيرة تقع علينا للنهوض بهذه الشئون كى تتسلح مصر فى هذا المعترك الدولى المتلاطم بالعلوم والمعارف والأخلاق الفاضلة ، فتستطيع أن تحمى سيادتها الناشئة وأن تأخذ مكانتها اللائقة بين الأمم فى خدمة الانسانية والعمران ٠

واذا جاز لمثلى أن يبدى رأيه فيما صارت اليه شئون التعليم تحت الادارة الوطنية فانى لا أحسبنا جد بعيدين عن سواء السبيل ٠

فنحن ننكر الآن أن يكون الغرض من التعليم اعداد الموظفين ، ونحرص على أن نتجه به الى تكوين المواطن الصالح والانسان الصالح القدير على خدمة الوطن والانسانية ومواجهة مشاكل الحياة ومسئولياتها بما يرفع من قدر الحياة الفردية والعائلية والاجتماعية والوطنية ويحقق السعادة للفرد وللمجتمع جهد الامكان ٠

ونحن نعرف أن أفضل الوسائل لادراك هذه الغاية هى صرف العناية الى شخصية الطالب وتعهدها بالتربية الجسمية والعقلية والنفسية والروحية والخلقية والكشف عن ميولها ومواهبها لمعاونتها على الظهور والنمـــــو وتوجيهها وجهة المصلحة والخير ٠

ونحن نفهم أن أحسن التربية ماكان أســـاسه غـــرس الثقة بالنفس والاعتماد عليها وتنمية روح الايثار والتضحية فى سبيل الصالح العام ٠

ونحن نحاول دائبين فى دوائرنا التعليمية رسمية وغير رسمية أن نأخذ بهذه الوسائل ونحقق هذه الغايات ٠

ونحن نتجه الى تعميم العلم وتيسيره للجميع بنات وبنين وأغنيـــاء وفقراء على السواء ، وقد خطونا فى هذا السبيل الديمقراطى الوطنى خطوة طيبة بتعميم المجانية فى التعليم الابتدائى القائم وتوسيعها فى التعليميـن الثانوى والعالى والأخذ بمبدأ تكافؤ الفرص لأبناء الوطن أجمعين ٠

ولكن يجب أن نعلم أننا لم نقطع الا شوطا قصيرا ٠ ومازال أمامنا شوط نـاء بعيد ٠ وأن النتائج على وجه خاص لاتدعو الى الاســـراف فى التفاؤل ، اذ بالرغم من المحاولات المتتابعة لتصحيح أهداف التعليم وتحسين قواعده ووسائله لايزال أكثر المتعلمين يحجون الى وظائف الحكومة ويجعلونها همهم فى الحياة ٠ فاذا اتجه البعض الى الأعمال الحرة فكثيرا مايلاحظ عليه التقصير ونقص الاستعداد ٠

ثم ان الطلاب بوجه عام فى أشد الحاجة الى روح الطاعة والنظام وتوقير الرؤساء واحترام أولياء الأمور ، ويلاحظ على أكثرهم ضـــعف الشخصية وقصور الهمة والعجز عن احتمال التبعات ومواجهة المسئوليات٠

وهذه النتائج السيئة جديرة بأن تلفت أنظارنا الى مالايزال يعلـــق بأنظمتنا التعليمية من العيوب والشوائب ، وبأن تحفزنا الى التماس مايجب لها من الطب والدواء ٠ وتلك مهمتكم معشر القائمين بأمور التعليم ٠ وكل مايستطيعه صديق مثلى هو أن ينصح بالاناة والتريث واستيفاء البحـــث والدرس قبل التغيير والتبديل ، فنظامنا التعليمى بحاجة الى الاطمئنـــان والاستقرار بمقدار مايحتاج الى التحسين والاصلاح ٠

وهنا عيوب أخرى يجب أن أشير اليها فى هذا المقام ولكنها ليست من عيوب التعليم بل هى من عيوب السياسة التى يمكن أن نصلحها بالتعليم. فقد أصبح جونا السياسى مليئا بالأثرة والأنانية والحقد والكراهية والمهاترات والخصومات وكادت المصالح الحزبية والشخصية تغرق المصالح الوطنية فى لجتها ، وتفرقت الكلمة أيدى سبا ، ونحن أشد مانكون حاجة الى تضافر الجهود وائتلاف القلوب .

وأخشى ما أخشاه أن تنتقل هذه الآفات من الساسة المدبرين الى الساسة الناشئين ، وأن تغزو نفوس الشباب ، وهم ذخر الوطن فى الملمات وعدته للنائبات وأمل الحاضر الحزين فى مستقبل سعيد أمين .

فاحذروا معشر المعلمين هذه العاقبة النكراء وجنبوا مصر من شرورها، ففى ذمتكم أخلاق الشباب ، ومن كانت أخلاق الشباب فى ذمته ففى ذمته مصير البلاد .

نشئوهم على انكار الذات وايثار المواطنين .

علموهم حب الوطن والتضحية فى سبيله بما يملكون .

واغرسوا فيهم روح التضافر القومى والتكافل الأخوى ليكونوا بردا وسلاما على اخوانهم فى الوطنية ونارا حامية على المغتصبين .

ولاتخشوا أن يقال أقحموا السياسة فى معاهد العلم ، فالسياسة المنكرة هى سياسة الحزبية والتفريق ، أما دعوة الاخاء والوطنية فما أجدر أن تكون عندنا كما هى عند غيرنا أول الأسس فى حياة التعليم .